المعاني الحية في رسالة محمد

للأستاذ محمد عبد الله السمان

كلما حلت ذكرى ميلاد محمد — صلوات الله وسلامه عليه — حرص كثير من الوعاظ وخطباء المحافل أن يحوطوا شخصيته بهالة من الخوارق إبان مولدها، مستغلين عواطف الجهلة من السذج والبسطاء، لاصطناع الألفاظ المنمقة، والعبارات المسجوعة، التي تستثير مشاعرهم، وتستنطق ألسنتهم بتأوهات الإعجاب والاستحسان

وتمر الذكرى الطيبة، بعد أن تلقى آلاف الخطب في المساجد والسرادقات. فلا يخرج المسلمون منها إلا بالتوافه التي لا ترفع من قدر صاحبها (ص) وإذا سألتهم ماذا حفظتم من ذكرى رسولكم (ص) أجابوك عن ظهر قلب: إن ليلة مولده اهتز إيوان كسرى، وخمدت نيران فارس، وانشقت الأرض عن نور سد ما بين الخافقين، وفتحت أبواب الجنة، واغلقت أبواب جهنم، وازينت السماء، وابتهجت الملائكة ... وإن أمه بنت وهب لم تجد مشقة في وضعه، وسمعت هتافات الملائكة تبشر بمقدم الوليد الجديد، وإن مرضعته حليمة قد در لبنها يوم أن تسلمته، وأن الغمامة كانت تظلله حيثما سار، وأن الأحجار قد كلمته، والحصى قد سبح بين يديه، والجزع حن له .. وما إلى هذه من الأقاصيص التي تليق بالأبطال الخرافيين — لا بشخصية كشخصية محمد (ص) الإنساني الذي هيأ للانسانية أطيب حياة، والمصلح الذي وضع أسس الإصلاح في الأرض، والعظيم الذي قدم للدنيا خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله

إني لأعجب .. كيف نجهل — نحن المسلمين أتباع محمد — شخصيته هذا الجهل الفاضح، فبينما يرى المنصفون من المستشرقين في شخصه — رجلا مصلحا من عظام المصلحين، يكفيه فخرا أنه هدى أمة برمتها إلى نور الحق؛ وفتح لها طريق الرقي والمدنية؛ وهو عمل لا يقوم به إلا رجل أوتي قوة، ورجل مثل هذا جدير بالاحترام

إن بعضنا يؤثرون أن يتجمعوا تحت الراية العربية ... وأنا لا اعارض في أن يكون هذا تجمعا وقتيا يهدف إلى تجمع أكبر منه، فليس هناك تعارض جدي بين القومية العربية والوطنية الإسلامية إذا نحن فهمنا القومية العربية على أنها خطوة في الطريق. إن أرض العرب كلها جزء من أرض الإسلام، فإذا نحن حررنا الأرض العربية فإننا نكون قد حررنا بضعة من جسم الوطن الإسلامي، نستعين بها على تحرير سائر الجسد الواحد الكبير.

والمهم أن نتجمع اليوم ونتساند كما يتساند العالم الحر ضدنا. فكل بلد صغير لا يستطيع وحده أن يكافح عالما. والسياسة القصيرة النظر التي تريد أن تحصرنا في حدودنا الجغرافية المصطنعة هي سياسة حمقاء؛ فالعالم يسير نحو التكتل في الشرق والغرب سواء. ومن واجبنا أن نتكتل على الأقل تمشيا مع منطق العصر؛ إن لم يكن تمشيا مع منطق الإسلام

والمجموعة الآسيوية الإفريقية تحاول أن تكون كتلة محايدة. ولا ضير من السير معها، وإن كنت أنا شخصيا لا أرى أن هنالك مقومات حقيقية ودائمة لقيامها. فهنالك تيارات مختلفة تتجاذبها. والمصالح التي تربط بينها اليوم مصالح مؤقتة. أما الكتلة التي يمكن أن تقوم على أسس حقيقية وعميقة ودائمة فهي الكتلة الإسلامية، وهي آتية لا ريب فيها على الرغم من جهود « العالم الحر » وجهود « الديمقراطيات الشعبية » فلنعجل بقيامها فهي سندنا الحقيقي الوحيد

سيد قطب

والإكرام.. بينما يرى الأجانب فى محمد المصلح العظيم ، نأبى نحن أتباعه إلا أن نضفى على سيرته من الخوارق والتوافه التى تبين مدى جهلنا بشخصيته

وإذا تركت جانبا هذا الصنف المشغوف بإلصاق الخوارق بسيرة محمد ، وجدت صنفا آخر من المسلمين مشغوفا بأن يجعله فوق مستوى البشر ، وأنه رسول ليس ككل الرسل ، لأنه أفضلهم على الإطلاق ، ولأنه إمامهم ، ورسالاتهم مستمدة من رسالته ، ولأن الله ناداهم بأسمائهم وناداه بصفاته ، وما إلى هذه من الترهات الرخيصة . ولو فقه هذا الصنف النبى شخصية محمد كما يجب أن تفقه ، لأدرك أن محمدا نفسه لم يقر تفضيله على غيره من إخوانه الرسل ، لأن فى هذا لونا من التعصب الذى لا يرتضيه لأتباعه ؛ فقد ورد فى صحيح البخارى عن أبى سعيد الخدرى قال : « بينما رسول الله (ص) جالس جاء يهودى، فقال : يا أبا القاسم ! ضرب وجهى رجل من أصحابك . فقال : من ؟ قال : رجل من الأنصار . قال : ادعوه ، فقال : أضربته ؟ قال : سمعته بالسوق يحلف ، والذى اصطفى موسى على البشر ! قلت : أى خبيث ! على محمد (ص) ؟ فأخذتنى غضبة ضربت وجهه . فقال النبى (ص) لا تخيروا بين الأنبياء ، فإن الناس يصعقون يوم القيامة ، فأكون أول من تنشق عنه الأرض ، فإذا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدرى أكان فيمن صعق أم حوسب بالصعقة الأولى ؟ »

وهناك صنف ثالث منضو فى سلك الطرق الصوفية البلهاء ، يعتبر أن المسلم لا يكون مسلما إلا إذا اعتقد أن نور الكون مستمد من نور محمد ، وأن السماء والأرض ، والشمس والقمر والنجوم ، والبحار والجبال ، كل هذه لم تخلق إلا من أجله ... وهذا الصنف أتفه من أن نقيم لعقليته وزنا

إن محمدا صاحب رسالة إنسانية ، فإذا أردنا أن نحتفى ونحتفل بذكراه ، فالواجب أن نستشف المعانى الحية التى تضمنتها رسالته ، والتى تنهض بأمتنا وهى فى مسيس الحاجة إلى النهوض ، فما المعانى الحية التى تضمنتها رسالة محمد — صلوات الله وسلامه عليه - ؟

إن رسالته تضمنت معانى ثلاثة حية : تحرير العقول ، وتحرير النفوس ، وتهيئة حياة طيبة لهذه النفوس

فقد كانت العقول قبل رسالته غريقة فى خضم من الضلال والغى ، وأى دليل على ضلالها وغيها أوضح من عكوفها على عبادة حجارة صماء ، لا تسمع ولا تبصر ولا تضر ولا تنفع ، وما أن جاءت رسالة محمد حتى أخذت على عاتقها تحرير هذه العقول ، وانتشالها من هوة الضلال والغى ، إلى أفق النور والهداية ، وراحت بالمنطق السليم تناقش عقيدتها حتى تثبت فسادها :

« إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ، فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين — ألهم أرجل يمشون بها ، أم لهم أيد يبطشون بها ، أم لهم أعين يبصرون بها ، أم لهم آذان يسمعون بها ؟ قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون — إن ولى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين — والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ، ولا أنفسهم ينصرون — وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا ، وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون » الأعراف

« يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ، إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له . وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه . ضعف الطالب والمطلوب — ما قدروا الله حق قدره ، إن الله لقوى عزيز » الحج

« واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون، ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ، ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا . » الفرقان

بهذا المنطق السليم استطاعت رسالة محمد ، أن تحرر العقول ، وتوجهها إلى عبادة الواحد القهار ، الخالق الرازق ، والضار النافع ، الذى بيده ملكوت كل شئ ، والغالب على أمره الذى لا يعجزه شئ فى الأرض ولا فى السماء

ورسالة محمد حررت النفوس بعد أن وضعت حدا لاستعباد الإنسان للانسان ، فقد كانت الحياة قبل بعثة محمد (ص) مزيجا من الهمجية والفوضى ، وأبرز ما فيهما العصبية القبلية ، فالقبائل الكبرى تتعاظم بآبائها وتفخر بأجدادها ، وتتشدق بأنسابها وأحسابها ، أما الضعفاء والهزل ، فهم كمية مهملة ضائعة ، لا وزن لها ولا قدر ، ولا يعبأ بكيانها ولا يكترث لوجودها ، يسخرون كما تسخر الأنعام ، ويعيشون عيش الرقيق المسلوبى الإرادة ، وما أن جاءت رسالة محمد حتى أعلنت أن الناس جميعا قد خلقوا من نفس واحدة وعنصر واحد ، ومنتسبون جميعا إلى ذكر وأنثى ، لتقرر مبدأ المساواة بينهم ، حتى يظلوا بعد اليوم سواسية كأسنان المشط ؛ وراح القرآن يقوم بمهمة تقرير هذا المبدإ الخطير الدقيق :

« يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء .. » النساء

« ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون . » الروم

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم .. » الحجرات

والرسول (ص) لم يدع فرصة تمر دون أن يكافح عنجهية الجاهلية الأولى ، ويحطم شوكة الغرور الذى كان يملأ أنوف المتعاظمين بآبائهم ، المتشدقين بأنسابهم وأحسابهم ، فقد صاح ذات يوم فى قريش قائلا : « يا معشر قريش ، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتكثرها بآبائها ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، وأكرمكم عند الله أتقاكم ... والمسلم أخو المسلم ، والمسلمون إخوة ... » ، وقال : « ليدعن قوم الفخر بآبائهم وقد صاروا فحما فى جهنم ! أو ليكونن أهون على الله من الجعلان التى تدوف بأنفها القذر . » ، وغضب حين سمع أباذر يعير خادمه بأمه السوداء ، وقال : « يا أباذر ارفع رأسك فانظر ، ثم اعلم أنك لست بأفضل من أحمر فيها ولا أسود إلا أن تفضله بعمل . »

بهذه القوة الكامنة فى رسالة محمد (ص) أمكن تحرير الإنسان من عبودية الإنسان ، وإزالة التفاوت المصطنع الذى كان يشرف على اصطناعه الرضى بالغرور والكبرياء من ذوى الأحساب والأنساب والأموال ، كما أمكن صبغ الجميع بصبغة المساواة الخالصة ، فتيسر وضع أسس الاستقرار فوق الأرض

ورسالة محمد (ص) هيأت للنفوس حياة طيبة . ولما كان العلم هو الدعامة التى يرتكز عليها بناء النهضات فى الأمم ، فقد احتضنت رسالة محمد العلم ، ودعت إليه ، وحثت عليه ، وأكرمت قدره ، وأعلت منزلته ، والقرآن الكريم تنطق آياته بتقدير العلم وإعزاز شأنه :

« ... قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، إنما يتذكر أولو الألباب » الزمر

« ... يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات .. » المجادلة

« يؤتى الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا .. » البقرة

بل إن القرآن دفع الناس إلى المغامرة فى سبيل تحصيل العلم ، وإلى مواصلة التحصيل منه إلى أن يشاء الله ، لأن العلم بحر لا ساحل له ، ولأنه أفق بعيد لا نهاية له ، وهذا الدفع من شأنه أن يجعل الإنسان يقف نفسه على البحث عن كنوز العلم وذخائره :

« ويسألونك عن الروح ، قل الروح من أمر ربى ،

وما أوتيتم من العلم إلا قليلا . » الإسراء

« ... وقل رب زدنى علما . » طه

والرسول (ص) يشير إلى هذا المعنى فيقول :

« لا يزال المرء عالما ما طلب العلم ، فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل . »

وهناك شبهة صاغتها عقول أولئك الذين أصيبوا بعمى فى بصائرهم ، وغل فى صدورهم ، يقولون : إن الإسلام يكرم العلم الخاص بالدين فحسب ، ويتجاهلون أن الإسلام إنما يكرم العلم أيا كان نوعه ، ما دام يعتبر وسيلة لتفقه المسلمين فى دنياهم ، وإلا فأى داع إلى أن يشير القرآن إلى علوم الفلك والتقويم ، والزراعة والتجارة ، وعلم الأحياء وعلم النبات ؟ وأى داع إلى أن يحضنا على التفكر فى خلق السموات والأرض والشمس والقمر وما إليها ؟ وكيف نكون خير أمة أخرجت للناس ، إذا لم يكن العلم رائدنا فى حياتنا ، وهدفنا فى دنيانا .. ولكن من أنى لنا أن نقنع هؤلاء الذين لا يؤمنون ولو آتيناهم بكل آية . . ؟

وبعد — فإن رسالة محمد — صلوات الله وسلامه عليه — لأسمى من أن تكون قصصا للتسلية ، وهى تتضمن أمثال تلك المعانى الحية الثلاثة ، التى تغافل المسلمون عنها ، وهى جديرة بأن تبرز فى حياتهم حتى ينقلوا إلى الأفق اللائق بهم . والعجيب أن هذه المعانى الثلاثة ، قد تضمنتها أول آية نزلت من كتاب الله تعالى ، إذ وجهت الناس إلى الخالق الجدير بالعبادة لتحرير العقول ، وأشارت إلى أنهم مخلوقون جميعا من عنصر واحد لتقرر مبدأ المساواة فتحرر النفوس ، كما أشارت إلى العلم تقديرا له ، لينقلوا إلى حياة راقية بواسطته :

« اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم . »

محمد عبد الله السمان

التفسير الواضح

للأستاذ محمد محمود حجازى — من علماء الأزهر

تفسير عصرى . جمع بين خيرى القديم والحديث مع السهولة في العبارة والوضوح والتبويب

ظهر منه إلى الآن عشرة أجزاء — ثمن الجزء ٥ قروش — يطلب من دار الكتاب العربى بالقاهرة (ش) فاروق والاسكندرية ميدان الخديو إسماعيل — ومكتبة وهبة (ش) إبراهيم ١٤ بالقاهرة — ومكتبة عبد الجواد بالزقازيق ومكتبة أبو العز بطنطا

ظهرت الطبعة الجديدة

من كتاب

فى أصول الأدب

للأستاذ أحمد حسن الزيات

من موضوعاته الأدب وحظ العرب من تاريخه ، العوامل المؤثرة فى الأدب ، النقد عند العرب وأسباب ضعفهم فيه ، تاريخ حياة ألف ليلة وليلة ، أثر الثقافة العربية فى العلم والعالم الرواية المسرحية والملحمة وتاريخهما وقواعدها وأقسامها وكل ما يتصل بهما ، وهو بحث طريف يقع نصف الكتاب

ثمنه خمسة وعشرون قرشاً عدا أجرة البريد